

الأبعاد الدلالية للوطن في نشيد (قسما) لمفدي زكريا

د. محمد حراث

جامعة حسيبة بن بوعلـي - الشلف (الجزائر)

momo.adab@gmail.com

الملخص.

تتحدث ورقتنا البحثية هذه عن حضور الوطن كقضية مقدسة في شعر مفدي زكريا، شاعر الثورة الجزائرية، فلا يكاد يغيب الوطن عن كل أعماله الأدبية الشعرية. واخترنا في هذه الورقة البحثية التطبيقية قصيدته المشهورة: (قسما): حتى ندرس هذا الحضور البارز للوطن في القصيدة/النشيد، بمختلف مظهراتها وتشكلاتها وأبعادها الدلالية، إذ درسنا الوطن من خلال أبعاد كثيرة: البعد الثوري، البعد الجغرافي، البعد القومي/العربي/الإنساني، البعد الديني/الإسلامي، وحتى البعد الأدبي للوطن، فدرسنا الجانب الأسلوبي والإيقاعي للنشيد، وغير ذلك من الأبعاد الدلالية المقارباتية لحقل الوطن في النشيد الوطني (قسما). فهي إذن مقارنة تحليلية لموضوع الوطن من خلال أبعاده الدلالية المختلفة.

1- المقدمة.

النشيد في اللغة يعني رفع الصوت، ولا يختلف عنه في الاصطلاح؛ إذ هو شعرٌ وُضِعَ للتغني والترنم، يعتمد اللحن، وربما الآلات المرافقة في بعض الأحيان، وهو فنٌّ من الفنون، ووسيلة للتبليغ والتواصل.

ونصّ النشيد يختلف عن النصّ الشعري العادي في بعض النُّقاط، وذلك لتباين أغراضهما، فالنشيد ينبغي أن يمتاز نصّه بالجودة؛ من حيث سهولة الألفاظ، وكذلك الوزن المضبوط من خلال احترام الطبقات الصوتية، والإيقاعات الموسيقية المناسبة. ثمّ التّغيم السليم غير التّأشز، الذي يجب أن يرافق هذه الكلمات، ونعني به التّرنيمات، وكذا اللحن الموافق لمعاني النصّ.

وللأنشيد أنواعٌ كثيرة، وطبوعٌ متعدّدة، بحسب الأغراض والموضوعات، ومنها الأنشيد الوطنية، التي تهدف إلى غرس حبّ الوطن، وكذا الاعتزاز بالانتماء إليه، ثمّ إثارة الحماس، والتّحريض على الدّود عنه، والدّبّ عن حياضه، ثمّ الإشادة بأمجاده، والتّغني ببطولات أبنائه عبر تاريخ الوطن العريق.

ولقد كانت لثورة التّحرير الجزائرية الكبرى على النّفوس والبلاد وقعا ذا بال، وكان للشّعراء حضورٌ مميّز، خلّدوا مآثر المجاهدين، وبطولاتهم، فنظم مفدي زكريا ديوانه (اللهب المقدّس) تحت تأثير هذه الثّورة، التي أخذت بلبّ الشّعراء، وأثارت حماسهم، حتّى أخرجوها كلمات حارّة، توازي حرارة البارود من بنادق المجاهدين، فجاءت (وتعطّلت لغة الكلام) ليتصوّر حجم الحدث الذي لا يستوعبه إلا السّلاح، وتوجّه الشّعير إلى تصوير مواقف الحرب، والمواجهة المسلّحة، وأعمال التّعذيب، وبثّ روح الصّبر والثبات والتّضحية.

2- وفاء لمفدي زكريا.

وها هو شاعر الثورة الأول - دون منازع - المجاهد الكبير مفدي زكريا بعد أن غُمِطَ حَقُّه من بعض الأطراف السياسية، وأُبعِدَ عن وطنه بعد الاستقلال، ظلَّ متنقلاً بين جارتيه: تونس والمغرب. ها هو يعود جثمانه إلى تراب وطنه الغالي، ويُوَارَى في تراب ميزاب الطَّاهر، وها هو المجلس الشعبي الوطني، بتوجيه من الرئيس الشاذلي بن جديد (رحمه الله) يرسمُ نهائياً نشيد الثروة (قسماً بالنازلات الماحقات) الذي نظمه مفدي زكريا في سجن سركاجي (برباروس) عام 1955.

ومن تكريم التاريخ له أن أنشأ محبّوه مؤسسة مفدي زكريا التي بدأت في شهر أكتوبر من عام 2001. إنّه (مفدي زكريا)، أو (الفتى الوطني)، أو (أبو فراس الحمداني)، أو (ابن تومرت)، كلّها ألقاب والمسّمَى واحد، هو الشيخ زكريا بن سليمان.

وأهمّ ما ذُكِرَ عن سيرته¹ أنّه ولد يوم 12 جوان 1908 م، الموافق ليوم الجمعة 12 جمادى الأولى 1326هـ، ببني يزقن، بمنطقة بني ميزاب (غرداية). وبها حفظ القرآن العظيم، وتعلّم مبادئ اللغة العربية، والفقاه الإسلامي، ثم ذهب ضمن البعثة الميزابية إلى تونس عام 1922، ليتابع تعلّمه. وكانت له علاقة حسنة مع الشاعر الجزائري رمضان حمود، وكذا الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي. وقد تفجّرت موهبته الشعيرية في بدايات عام 1925، حين رثا كبش العيد، متأثراً بأبي العلاء المعري، ثمّ توالى عمله الإبداعي بعد ذلك.

عاد إلى الجزائر عام 1926، وأصبح من الأعضاء الناشطين في جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، وفي 17 أكتوبر 1936، نظم نشيد (حزب نجمة شمال إفريقيا)، ثمّ في عام 1937، نشر قصيدته المشهورة (البردة الوطنية الجزائرية). ثمّ صار من أبرز قيادي حزب الشعب الجزائري، الذي أسسه مصالي الحاج (رحمه الله)، ثمّ صار رئيس تحرير جريدته باللغة العربية.

من داخل السجن نظم (اعصفي يا رياح: 29 أكتوبر 1937)، وبعد خروجه من السّجن، دخل عالم الفن، ليواصل نضاله بطريقة أخرى، فالتقى بمحي الدين بشطارزي، وكتب كلمات العديد من الأغاني لمطربين معروفين من الجزائر وتونس؛ أمثال: فريد باي قدور السرافي، وحسيبة رشدي، وفضيلة ختمي، وعبد الكريم الحبيب. ولحّن للكثير كذلك. وظلّت إثر ذلك القوات الفرنسية تعتقله، إذ سُجِنَ أربع مرات: (1940، 1945، 1949، 1951)، إلا أنّه على الرُّغم من كلّ هذه المضايقات، واصل نضاله السياسي ولم يتوقّف.

ثمّ ما إن اندلعت ثورة نوفمبر المجيدة، إلا وكان من الأوائل في صفوفها، حتّى أُلقيَ عليه القبض يوم 12 أفريل 1956، ليملك في السجن ثلاث سنوات، وإثر تنقله من بربروس إلى الحراش إلى البرواقية، نظم أحسن أشعاره بين جدران هذه السّجون، ليفرّ بعدها إلى المغرب بعد خروجه من السّجن، ثمّ إلى تونس.

وكان من الأوائل الذين نادوا بوحدة الشعوب المغاربية، وناضل من أجل هذه المبدأ كثيرا، كيف لا وهو الذي قال يوما في مؤتمر طلبة شمال إفريقيا الرابع، الذي عُقد بقاعة الخلدونية بتونس عام 1934: "أولاً: أمنتُ بالله ربّاً، والإسلام ديننا، وبالقرآن إماما، وبالكعبة قبلةً، وبسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) نبيا ورسولا، وشمال إفريقيا وطنا واحدا لا يتجزأ. ثانيا: أقسم بوحداية الله أني أومن بوحداية شمال إفريقيا، وأعمل لها ما دام في قلب خافق، ودم دافق، ونفس عالق..."². فمفدي زكريا كما أنه عرف بلقب شاعر الثورة التحريرية الجزائرية، فإنّه عرف كذلك بشاعر وحدة المغرب العربي.

وبعد أن استرجعت الجزائر استقلالها، هرع مفدي زكريا راجعا إلى بلاده، وبقي فيه مدّة يسيرة، بعد أن تقلّد عدّة مناصب في الحكومة، وبعد معارضته الشديدة لانقلاب 1965، انجبر على مغادرة الجزائر، ليعود بعدها إلى تونس، ثمّ رحل إلى الدار البيضاء بالمغرب عام 1969. وبعد تنقلات بين تونس والمغرب، لقي ربّه في تونس يوم الثاني من رمضان من عام 1397هـ، الموافق لـ 17 أوت 1977م. ودفن في مسقط رأسه بغرداية. ولم نحط بكلّ مراحل حياته، ولكن أشرنا إلى ما اشتهر منها فقط، فحياة الرّجل حافلة بكلّ عظيم، وزاخرة بكلّ جليل. إذ ترك لنا إرثا أدبيا زاخرا، منه: ديوان إلياذة الجزائر (1976)، وديوان اللّهب المقدّس (1961)، وتحت ظلال الزيزفون (1966)، ومن وحي الأطلس (1976).

3- كلمة عن النشيد الوطني (قسما).

اجتمع قادة جبهة التحرير، وعلى رأسهم الشّهيد عبان رمضان، وقرّروا أن يكلفوا لخضر رباحي بتكليف شاعر بكتابة نص شعري ثوري لاعتماده نشيدا وطنيا، وهنا التقى رباحي بالشاعر مفدي زكريا، وكلفه بالمهمّة، فنظم مفدي زكريا النشيد في يوم واحد، وقام محمد التوري الملحن الجزائري بتلحينه، لكنّ اللّحن لم يكن بالمستوى الحماسي المطلوب، إذ رأى القائمون على الثورة أنّ كلمات النّشيد كانت أقوى من اللّحن الذي وُضِعَ لها، فتوجّه مفدي زكريا إلى تونس، حيث أسندت مهمّة التّلحين إلى الملحن التونسي محمّد التريكي، إلا أنّ لحن محمد التريكي كان صعب العزف، ليتولّى تلحينه الملحن المصري محمّد فوزي، الذي اعتبر الأمر تحديا له، وهو الذي عُرف عنه تلحينه للأغاني الخفيفة، وهذا اللّحن لم يبق على حاله، بل طرأ عليه بعض التّغيير³.

4- التحليل الموضوعاتي للمقاطع الخمسة.

أ- المقطع الأوّل:

قسما بالنازلات الماحقات *** والدّماء الزّاكيات الطّاهرات
والبنود اللامعات الخافقات *** في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

يبدأ الشّاعر مفدي زكريا مقطعه الأول بقَسَمٍ يعظّم فيه ما سيقسّم به، فقد أقسَم بعظمة دماء الشهداء الزكيّة، وأقسَم بالجمال الشّامخة شموخ همم أبطالها، أنّ ثورة الأحرار الجزائرية ثورة حياة بنصر، أو موتٍ بشهادة، شعارها: وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

ب- المقطع الثاني.

نحن جند في سبيل الحق ثرنا *** وإلى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يُصغى لنا لما نطقنا *** فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرّشاش لحنا *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

في هذا المقطع يبيّن مفدي زكريا سبب قيام شعبه بالثورة، فيبيّن أن ثورتهم قامت عن حق؛ لأنّها تنشد الحرّيّة، وتطالب بالاستقلال، ويبين بعدها أنّه بعدما فشلت الحلول السياسية والسلمية، أيقنوا أنّ ما أُخذ بالقوّة لا يُستردُّ إلا بالقوّة، فعقدوا العزم أن تحيا الجزائر.

ت- المقطع الثالث.

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب *** وطويناه كما يطوى الكتاب
يا فرنسا إنّ ذا يوم الحساب *** فاستعدّي وخذي منّا الجواب
إنّ في ثورتنا فصل الخطاب *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

يتوجّه مفدي زكريا بالخطاب في هذا المقطع إلى فرنسا، ويبيّن لها أنّ زمن المفاوضات قد ولى، وحن القصاص، والرّد بالرصاص، موقنا أنّ ساعة زوالها قد حانت، فهذه الثورة المجيدة عقدت العزم أن تحيا الجزائر.

ث- المقطع الرابع.

نحن من أبطالنا ندفع جندا *** وعلى أشلائنا نصنع مجدا
وعلى أرواحنا نصعد خلدا *** وعلى هاماتنا نرفع بندا
جبهة التّحرير أعطيناك عهدا *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

عنوان هذا المقطع هو التّضحية من أجل الشّهادة، واسترخاض الأرواح في سبيل العزّة والكرامة والحرّيّة والاستقلال، يبيّن فيه الشّاعر أنّ الشعب الجزائري لم يألُ جهدا، ولم يدّخر وسعا، في سبيل نيل حرّيته، واسترداد كرامته، فضحّى بالنّفس والنّفيس، وبالدماء والأرواح في سبيل ذلك، تحت لواء جبهة التحرير المجاهدة، عاقدا العزم معها أن تحيا الجزائر.

ج- المقطع الأخير.

صرخة الأوطان من ساح الفدا *** فاسمعوها واستجيبوا للندا

واكتبوها بدماء الشّهدا *** واقراؤها لبني الجيلِ غدا
قد مددنا لك يا مجديدا *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

يدعو الشّاعر مفدي زكريا في المقطع الخامس والأخير كلّ الأحرار إلى الانضمام إلى الثّورة؛ تلبيةً لنداء الوطن، واستجابةً لصوت الحقّ والواجب، وتقديم المزيد من التضحيات ليسجلّها لهم التاريخ، وتحفظها الأجيال، وتتوارثها عبر العصور جيلا بعد جيل، فتبقى خالدة.

5- البعد التّاريخي للنّشيد الوطني.

قد يسأل أحدنا: لماذا ندرس التّاريخ؟ لماذا نرجع إلى الوراء؟ لماذا البكاء على الأطلال؟ فأقول: إنّنا ندرس التاريخ، ونذكره في كتاباتنا عموما، وفي أناشيدنا الوطنية خصوصا؛ لأخذ العبرة من الماضي، كي لا تتكرر الأخطاء نفسها، وندرس التاريخ لنتغنى بأمجادنا، للاقتداء بالشّخصيات التاريخيّة والبطوليّة، ولمّ لا الانطلاق بمشروع حضاري تراثي، يؤدي إلى نهضة علمية، مستندة إلى التراث بهوية قومية دينية، تقوم على التّجديد بروح عصريّة متجدّدة، وصدق حكماؤنا الذين قالوا: "إذا علم الإنسان أخبار من مضى، توهمته عاش من أول الدّهر".

والنصّ الذي بين أيدينا؛ والمتمثّل في النشيد الوطني الجزائري (قسما)، ضمّنه مفدي زكريا معاني تاريخية ذات أبعاد دلالية عميقة، تنمّ عن ثقافة الرّجل، وأصالة فكره، وعمق دلالات شعره، فنراه يقول في المقطع الأول:

قسما بالنازلات الماحقات *** والدّماء الزّاكيات الطّاهرات
والبنود اللامعات الخافقات *** في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

وهنا يكمن بعدد تاريخي دلالي خفيّ، ذلك أنّ مفدي زكريا ذكّر فرنسا أنّ ثورته ثورة حياةٍ أو موت، فمنذ دخول فرنسا، ومرور أكثر من قرن على مجابهتهم للأحرار الثوار الجزائريين، عاد مفدي زكريا ليذكّرهم أنّهم اختاروا طريقا من طريقين، لا ثالث لهما، إمّا التّصر، وإمّا الشّهادة، "نحن ثرنا" من قبل، ولم ولن نكلّ / "فحياة" بنصر، أو "ممات" بشهادة، ويذكر التّاريخ أنّ الثّوار الجزائريين إمّا انتصروا في الكثير من معاركهم في حربهم ضد فرنسا، وتلك "الجبال الشامخات الشّاهقات" شاهدات لهم بذلك، وإمّا لم يهابوا الموت في سبيل وطنهم الغالي، فجادوا "بالدماء الزاكيات الطّاهرات". فحين نقرأ هذا المقطع من النّشيد نسترجع ماضي ثورتنا المجيد، وتاريخها العظيم، الذي عبّر عنه مفدي في هذا المقطع خير تعبير.

وأما المقطع الثّاني، إذ يقول:

نحن جند في سبيل الحق ثرنا *** وإلى استقلالنا بالحرب قمنا

لم يكن يُصغى لنا لما نطقنا *** فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش لحنا *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

ففيه يبدأ البعد التاريخي يتجلى شيئا فشيئا، إذ نراه يذكر فرنسا في صدر البيت الأول أن ثورة شعب الجزائر ثورة عن حق، ومطلبه مطلب مشروع. فهذه بلاده، وهو صاحبها، وصاحب السيادة فيها. وكما عاد إلى التاريخ في صدر البيت الأول، استشراف المستقبل، واستبشر به في عجز البيت نفسه، حين رسم الهدف الواضح، والغاية الأسمى، ألا وهي الاستقلال، حين قال: "وإلى استقلالنا بالحرب قمنا".

ونراه في البيت الثاني يسرد سبب تحوّل الكفاح السلمي إلى كفاح مسلح، ويذكر فرنسا بتاريخ المفاوضات، واستجداء الحلول السلمية، التي كانت عقيمة، إذ أغلقت فرنسا في وجه الحلول كلّ باب، وسدّت دونه كلّ منفذ، فكان أن نابت الصفائح عن الصحائف، والرصاص عن القرباس، والحرب عن الجبر، فلم يكن يصغى للشعب حين نادى وندد، فاتخذ من البارود لغة جديدة، قد تكون ناجعة مع هذا المحتلّ الغاشم.

ثمّ يواصل مفدي زكريا في تجليته المعاني الدلالية للبعد التاريخي، فنراه في المقطع الثالث يقول فيه:

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب *** وطويناه كما يطوى الكتاب
يا فرنسا إنّ ذا يوم الحساب *** فاستعدّي وخذي منّا الجواب
إنّ في ثورتنا فصل الخطاب *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

قد خاطب فرنسا مصرّحا لا مملّحا، أن تطوي صفحة التاريخ الماضية، التي شاهها الخضوع والخنوع الذي فرضته فرنسا على الشعب الجزائري الأبّي، الذي وإن صبر أعواما، فإنّ صبره نفذ، وظلام صمته تبدّد، وها هو يتوعّد فرنسا على لسان ابنه البارّ مفدي زكريا، جاهرا بصوته، فاخرا فاه: "يا فرنسا قد مضى وقت العتاب"، "وطويناه" طيّ "الكتاب"، وها قد حان يوم "الحساب"، "فخذي" من بنادقنا "الجواب"، فهي أفصح لسانا، وأبين خطابا.

وأما في المقطع الرابع الذي يقول فيه:

نحن من أبطالنا ندفع جندا *** وعلى أشلائنا نصنع مجدا
وعلى أرواحنا نصعد خلدا *** وعلى هاماتنا نرفع بندا
جبهة التحرير أعطيناك عهدا *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

فنراه يشيد بتاريخ بطولية أبناء هذا الوطن، وعظيم تضحياتهم، ففي سبيل هذا الوطن يتوالى العطاء والجود بالأرواح، وبأشلائهم يصنعون أبهى صور التفاني في التضحية من أجل هذا الوطن، فيكسبون شارة المجد،

ووسامَ الفخر، لتسكن أرواحهم الطاهرة الزكية في الجنان خالدة، ويعبق تاريخهم على ألسن الأجيال ذكراً حميداً.

ولما كان من الفضل نسبة الفضل إلى أهله، لم ينس مفدي زكريّا التاريخ المضيء، والتضحيات الجسام، والأتعاب المضيئة التي حملها أفراد جيش التحرير الوطني، ليجدد لهم العهد، ويشدّ على سواعدهم، في سبيل أن تحيا الجزائر حرّة كريمة.

ثمّ في المقطع الأخير:

صرخة الأوطان من ساح الفدا *** فاسمعوها واستجيبوا للندا
واكتبوها بدماء الشّهدا *** واقراءوها لبني الجيل غدا
قد مددنا لك يا مجدّ يدا *** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

هنا استذكر الشاعر تاريخ أمجاد الشّعب بصورة أخرى، وهي استشرافه للمستقبل، ودعوته إلى الالتحام والاصطفاف صفا واحداً ضدّ عدوّ لا يألُ جهداً في تدمير كلّ ما هو جزائريّ.

6- البعد الجغرافي للنشيد الوطني.

هذا بعد آخر لا يقلّ أهميّة عن البعد التاريخي، وكذلك لا تخلو منه أنشودة (قسما)، كيف لا وهو الذي أرادها سجلاً يصف روعة الجزائر، وما تزخر به من عظمة، صوّرها في أبياته، من خلال معجم جغرافي زاخر، فصوّر "الجبال الشّامخات الشّاهقات" التي كانت مأوى المجاهدين في نضالهم، بل كانت المستشفى والمدرسة، وغير ذلك من الدلالات الجغرافية التي تضمّنتها هذه الأنشودة.

7- البعد الثوريّ للنشيد الوطني.

يطغى هذا البعد في الدلالة على جلّ الأبعاد الأخرى، بل إنّنا نرى زخماً كبيراً للثوريّ في هذه المقاطع الخمسة؛ ذلك أنّ من أهداف هذه الأنشودة الأساسية بثّ الحماس الثوري بين أفراد الشّعب الجزائريّ، كما أنّها ظهرت لترافق المجاهدين في ثورتهم العظيمة ضدّ المحتلّ الفرنسيّ.

فإذا جئنا إلى المقطع الأول من الأنشودة، وجدنا البعد الثوري يشكّله المعجم الآتي: (الدّماء/ البنود/ اللامعات/ الخافقات/ الجبال/ الشامخات/ الشاهقات/ ثرنا/ حياة/ ممات/ تحيا). فالدماء ثمن الثورة، يدفعه كلّ مناضل من دمه، والبنود تلك الأهداف والمبادئ التي يقف عليها وعندها كلّ فردٍ في توحّدٍ واتّحادٍ، تلمع في سماء المجد، وتخفق بالبسالة والبطولة، وتلك الجبال تشهد على التضحيات، وشموخها يشهد على شموخ ثوارها، وعلوّ همّتهم الشّاهقة، فهم الذين ثاروا ثورةً لا هواده بعدّها إلا باثنتين: حياةً بنصرٍ، أو موتٌ بشهادة.

وأما المقطع الثاني، فنجده أكثر حدّة في جانبه الثوري، ويتشكّل معجمه الثوري من الآتي: (جند/ ثرنا/ استقلالنا/ الحرب/ قمنا/ البارود/ الرّشاش). فهم جندٌ يسعون في ثورتهم إلى مطلبٍ هو الاستقلال، وهذا ما جعلهم يقومون إلى الحرب خفافا لا ثقالا، ترافقهم ألحان البارود، ونغمات الرّشاش، وياله من استعذابٍ للبندقية، واسنّاس بصوتها، لا يقول ذلك ولا يفعله إلا من بلغ من الشّجاعة ذؤابتها.

وأما المقطع الثالث، فلا يقلّ في بعده الثوري، فنجد لفظة (فرنسا) بوصفها عدوّاً في الحرب، وتسمية العدو بصريح العبارة فيه شيءٌ من التّحدّي، وشيءٌ من وضوح الهدف، ونجد كذلك (فاستعدّي) التي تحمل كلّ معاني التّحدّي والمواجهة بشجاعة.

وفي المقطع الرابع، نجد الشّاعر مفدي زكريّا يواصل تصويره للمشاهد الثورية بدقّة عالية، فهي الشّجاعة الثورية يصوّرها في أروع مشهد في قوله: "نحن من أبطالنا ندفع جندا"، فلم يكتفِ من جنوده إلا أن يكونوا من أبطال قومه، وشجعائهم، الذي يصنعون من الأشلاء مجداً وفخاراً، ولهذا زخر هذا المقطع بمعجم ثوريّ ثريّ جاء فيه: (أبطالنا/ جندا/ أشلائنا/ مجدا/ أرواحنا/ خلداً/ هاماتنا/ بنداً/ جبهة التّحرير/ عهداً/ تحيا).

والأمر نفسه في المقطع الأخير، إذ نجد: (صرخة/ الأوطان/ ساح الفدا/ النّدا/ دماء/ الشّهدا/ مجدا/ تحيا)، كلّه وفاء لمبادئ الثّورة، واستمراريّة ومواصلة.

8- البعد الوطني للنّشيد الوطني.

أمّا إذا جئنا إلى البعد الوطني، فالقصيدة ذات غاية وطنية، هذا أمرٌ لا يختلف فيه مختلفان، حاول من خلالها الشّاعر جمع جميع أطياف هذا البلد، ووجههم إلى هدف واحد، وهو تحرير الجزائر، بعد أن وحّد العدو، وهو فرنسا، تحت راية واحدة، هي راية جبهة التّحرير الوطنية، فالمعجم الوطني في هذه الأنشودة يتكوّن من المفردات التالية: (الجزائر/ نحن/ الجبال/ النازلات/ الخافقات) وغيرها، إذ حاول أن يمجد بطولات أبناء هذا الوطن، ويذكر فضلهم، وتضحياتهم، ويبثّ الحماس للهبة الواحدة من أجل تحرير الجزائر من براثن فرنسا الغاشمة.

9- البعد القومي/ العربي للنّشيد الوطني.

مما لا شكّ فيه أنّ هذا النّشيد يحملُ بعداً يتجاوز البعد الوطني الداخلي، كيف لا ومفدي زكريّا هو الذي حمل همّ اتحاد دول المغرب العربي أعواماً طويلة، وهو الذي ظلّ يفتخر بالعروبة والانتماء إلى العرب، وإنّما الجزائر وطنٌ من هذه الأوطان، وكثيرٌ من المعاني الواردة في الأنشودة، لا تنطبق على الجزائر وحدها، بل على كلّ الدّول العربية عموماً، لما فيها من معاني العروبة والحضارة العربية.

10- البعد الإنساني للنّشيد الوطني.

وكما أنّ للنّشيد بعدا يتجاوز البعد الوطني إلى البعد القومي العربي، فإنّها تجاوزت كذلك البعد القومي إلى البعد الإنساني عامّة؛ لأنّها تنشُد التّحرّر، والانعقاد من الظّلم والعبوديّة، وهذا غاية ما تنشده كلّ الأوطان.

11- البعد الديني / الإسلامي للنّشيد الوطني.

تزر أنشودة (قسما) بالمعجم الديني الذي تتضمّنه هذه الأنشودة، إنّها ملأى بالدلالات الدّينية/ الإسلامية، فأهمّ ألفاظ المعجم الديني نجد: (قسما/ النازلات/ الماحقات/ الزّكيات/ الطّاهرات/ عقدنا/ سبيل الحقّ/ يوم الحساب/ فصل الخطاب/ نصعد خلدا/ عهدا/ الشّهداء/ فاشهدوا). فهي ثورة لا يمكن أن نفصلها عن مبادئ الإسلام، الذي حتّى على الجهاد، والدّفاع عن الحرمات (الأرض/ العرض/ النفس)، فهي ليست ثورة من أجل أرضٍ فقط، وإنّما الدّفاع عن الجزائر دفاعاً عن الإسلام، ودفاعاً عن العربية، ودفاعاً عن حضارةٍ وإرثٍ زاخرٍ برمّته.

وانّها ثورةٌ مسلمين وكفّار، قبل أن تكون بين جزائريين وفرنسيين. كيف لا وكاتبها الشاعر الكبير مفدي زكريا، المتشبع بالثقافة الإسلامية، وهو الذي حفظ القرآن العظيم وهو في مهد الطّفولة، وقسم أنشودته إلى خمسة مقاطع استنانا بأركان الإسلام، واستنانا كذلك بالصّلوات الخمس المفروضة.

وهو الذي بدأها بـ (قسما بالنّازلات الماحقات)؛ أي قسما بالكتب السّماوية المنزلة، والتي جاءت لتمحو حقبة الاستبداد والظلم والبغي؛ وفي هذا تناصُّ دينيٌّ بديع. لهذا، ففرنسا لم تكتفِ باغتصاب الأراضي، ونهب الخيرات، وسلب الأرزاق، بل حاولت سلخ الجزائريين عن دينهم وتاريخهم ولغتهم، فهو احتلال مسّ كلّ الجوانب الاقتصادية والثقافية والدينية والحضارية.

وهذا ما جعل الجزائريين الأحرار يعضّون على دينهم بالتّواجد، فمع كلّ طليقة كانت تخرج من بنادقهم كانت تنطلق معها من حناجرهم صيحة (الله أكبر) تدوّي في جميع ربوع أرض الجزائر الطّاهرة.

12- البعد الأدبي للنّشيد الوطني.

يندرج النصّ ضمن فنّ من فنون الأدب العربي، وهو الشّعر، وشعر الإنشاد خاصّة، وتمتاز هذه المقاطع الخمس بما يمتاز به الشّعر العربي عموماً، إلّا أنّه لا بأس أن نقف عند بعض المحطّات وقفه أدبيّة، فقط من أجل الإشارة إلى بعض الأبعاد الدّلالية الأدبية التي تزر بها أنشودة قسما.

فإذا جئنا أوّلاً إلى البنية السّطحيّة لهذه الأنشودة، فأوّل ما نلاحظه هو توزّع النّصّ على وحدات صوتية أو لغوية متساوية، موقّعة وموزونة، والأبيات تنقسم عروضياً إلى شطرين: (فاعلاتن+ فاعلاتن+ فاعلاتن× 02). إذن فالأبيات من الشّعر الخليلي، موزونة على بحر الرّمل. ومن خلال النّغم الذي تولّد عن هذا البحر، ظهر حسنُ اختيار مفدي زكريا الذي واءم معنى الأنشودة، وخدم إيقاعها. هذا من حيث البنية السّطحية.

وأما إذا جئنا إلى البنية العميقة، فهي تمثل مخزونات المعاني التي يحتوي عليها مضمون النصّ، كما نجد فيها المقاصد الفنيّة والمعنويّة البعيدة، التي لا يدركها إلا من يغوص في غور هذه الأبيات.

فمن حيث أدوار المعنى وموجات الانفعال، فالتنصّ كلّهُ حماس، تتزايد فيه موجات الانفعال شيئاً فشيئاً، بدايةً بالقسم (قسماً) الذي أفاد تأكيد ما يليه من معانٍ، إلى الخطاب والنداء المباشرين لفرنسا، الذي يحمل معه حمولةً انفعاليّةً ممزوجةً بالتحدّي والشجاعة وبسالة المواجهة، إلى تعظيم الذات والافتخار من خلال نون الضمير المعظمة التي رافقت أشطر الأنشودة: (نحن ثرنا/ عقدنا/ نحن جند/ فاتخذنا/ وعزفنا/ طويناه/ نحن من أبطالنا...)، وكذلك ضمير الجمع الغائب/ المخاطب، الذي يحمل في طيّاته تعميم المنادى من دون تخصيص: (فاسمعوها/ استجيبوا/ اكتبوها/ اقرؤوها). كلّ هذه الأدوات وغيرها، أدت أدوارها في المعنى الانفعالي/ الحماسي/ الثوري الذي يصبّ في مغزى الأنشودة العامّ.

وأما من حيث الصّور البيانية ووظائفها الدلالية في هذا النصّ، فنجد النصّ لا يكاد يخلو شطرٌ فيه من صورة بيانية، حاول من خلالها مفدي زكريا دعم معاني نصّه بها، ونذكر على ذلك أمثلة لا حصر لها:

(تحيا الجزائر ← ← استعارة ← تجسيد المجرد وأنسنة المعنوي (الجزائر)).

(لم يكن يُصغى لنا لما نطقنا ← ← كناية ← ← المفاوضات السلمية).

(اتخذنا رنة البارود وزنا ← ← استعارة ← ← استعذاب نغمة البارود).

(عزفنا نغمة الرشاش لحنا ← ← استعارة ← ← استعذاب لحن الرشاش).

(مضى وقت العتاب ← ← مجاز/ استعارة/ كناية ← ← تصوير دقيق وتعبير صادق).

(طويناه كما يُطوى الكتاب ← ← تشبيه ← ← زيادة الدقّة في التصوير).

(في ثورتنا فصل الخطاب ← ← استعارة ← ← أنسنة الثورة).

(على أشلائنا نصنع مجدا ← ← مجاز/ استعارة ← ← تزيين صورة الشهادة).

(صرخة الأوطان ← ← مجاز ← ← جمال التّوحيد بين الوطن وأهله).

(جبهة التحرير أعطيناك عهدا ← ← مجاز ← ← جمال التّوحيد/ عدم تعيين فرد معيّن).

وكثيرةً هي الصّور البيانية التي تضمّمها هذا النصّ.

وكذلك لا يخلو هذا النصّ من الأنساق اللغويّة البديعيّة التي أضفت على معاني النصّ جمالا ورونقا، نذكر منها:

(حياة ↔ ممات ← ← طباق).

(المباحثات ↔ الطّاهرات ← ← تصرّيع)، وجاء هذا في النصّ كثيرا.

(جندا ←→ مجدا ← جناس ناقص من حيث نوع الحروف وترتيبها).

(العتاب ←→ الكتاب ← جناس ناقص من حيث نوع الحروف).

(الفدا ←→ التدا ← جناس ناقص من حيث نوع الحروف).

وغير هذا من المحسنات البديعية الجمالية التي وشّح بها مفدي زكريّا نصّه.

أمّا من حيث الإيقاع والموسيقى فيعدّ النّشيد الوطنيّ من أروع الأناشيد العالميّة من حيث الإيقاع، وكان قد فاز بالمرتبة الأولى في إحدى اللّجان ببريطانيا، وكانت مكوّنةً من خيرة الموسيقيين العالميين. وليس هذا مقامُ التفصيل في علم الموسيقى، ولكن -حقّاً- كنتُ قد اطّلت على كثيرٍ من الدّراسات الموسيقية للنشيد الوطني (قسماً)، فذهلتُ من النتائج، وطريقة التّركيب الموسيقي الذي يتألّف منه لحن النشيد (قسماً)، إنّه أوّل نشيدٍ في العالم له مقدّمةٌ موسيقيةٌ إيقاعيةٌ، المتمثلة في دقّ الطّبول، دلالةً على دقّ طبول الحرب لمواجهة المحتلّ، وهي من إبداع الموسيقار الجزائري هارون الرّشيد، وهي متكوّنة من خمس جمل إيقاعية.

وإذا حاولنا التّمثيل لبعض الارتفاعات والمدود الصّوتية في هذا النّشيد، فنكتفي بالتّمثيل للمقطع الأول، وهو يغني عن غيره، وهي كتابةٌ إيقاعيةٌ أكثر منها لغوية، نمثّل فيها بالعلامة (-) إلى مطّ الصّوت من جنس الحرف الذي قبل العلامة:

وَأَدْمَاءِي - زَاكِيَاتُ طَاهِرَاتٍ	فَاسْمَنْ - بِي نَازِلَاتٍ مَاحِقَاتٍ
فَلِ جِبَالِشْ شَامِخَاتِشْ شَاهِقَاتٍ	وَلِبُنُودِلْ لَامِعَاتِلْ خَافِقَاتٍ
وَأَعْقَدْنَا لِعَزْمٍ أَنْ تَحْيِلَ جَزَائِرُ	نَحْنُ تُرْنَا فَا حَيَاةً أَوْ مَمَاتٍ
فَشْهَدُو. فَشْهَدُو. فَشْهَدُو.	

وأما من حيث العاطفة، فإننا كنّا قد اكتشفنا صدقها -ولو ضمّنيا- خلال دراستنا للأبعاد الدلالية، لكن نظرة خاطفة على حياة مفدي زكريا ونضاله تضعنا أمام حقيقة لا تقبل معها شكاً ولا ريباً، هي أنّه كان مخلصاً لمبادئ ثورته، محبّاً صادقاً لوطنه، وكيف لا تكون عاطفته صادقةً وهو الذي أنشد في وطنه الذي فداه بدمه قبل حبره، وبروحه قبل كلمه، فهو من أقسم بالكتب المنزلة "قسماً بالنازلات" وب"الدّماء الرّاكيات" و"البند اللامعات، لا يخشى موتاً في سبيل وطنه، ولا يريد حياةً في غير وطنه.

وأما على صعيد التّناسخ، فقد وردت بعض المظاهر التّناسخية في القصيدة، وإن لم تكن كثيرة، فمنها على سبيل المثال قوله: "وطوبناه كما يطوى الكتاب"، تناصّ مع قوله تعالى: ﴿كَطَي السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾⁴. وقوله "يوم الحساب" تناصّ مع الكثير من الآيات القرآنية التي تتحدّث عن يوم الحساب. وكذلك الأمر نفسه في قوله: "فصل الخطاب" تناصّ مع قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾⁵. وتبقى بعض الظواهر التّناسخية الخفية في هذا النّصّ لم نتطرّق إليها.

وأما من حيثُ الزّمن، فما يلاحظُ هو غلبة الأفعال الماضيّة على هذا النص، وحتى التي لم تأتي في بنيتها على بنية الماضي، فأكثرها يفيد الماضي، فمن الأفعال الماضيّة الواردة في النصّ: "ثرنا/ عقدنا/ قمنا/ نطقنا/ اتّخذنا/ عزفنا/ مضى/ طويناه/ أعطيناك/ مددنا). وأما الأفعال على غير بنية الماضي فنجد: (تحيا/ يكن/ يُصغى/ يُطوى/ فاستعدّي/ خذي/ ندفعُ/ نصنعُ/ نصعدُ/ نرفعُ/ فاسمعوها/ استجيبوا/ اكتبوها/ اقرؤها). والأفعال الماضيّة هنا تفيد التّحقيق والتّقرير والتّأكيد.

وأما الحيّز المكاني الذي احتواه هذا النصّ، فليست كثيرة، لكن مكرّرة، وهذه الأماكن هي: (الجبال/ الجزائر/ فرنسا/ الأوطان/ ساح الفدا). وهي أحيزة ضروريّة معيّنة لميدان الصّراع بين من احتلّ ومن احتلّ.

فأما من حيث أسلوب النصّ فإنّه لا يختلف عن شروط أسلوب الأنشودة الذي يميّز عن أسلوب قصيدة الشعر، بأنّه أقلّ تعقيداً، وأخفّ وزناً، يعتمد الموجات الموسيقية والنعيمات الإيقاعية، من أجل تأدية اللّحن والإنشاد والتغنيّ بالأبيات.

كما يعتمد أسلوب الأنشيد قلة الصّور الفنّيّة، وعدم ازدحام المعاني؛ لأنّه نصّ غرضه التّلحين، أكثر من غرض القراءة والتّمعن، وهذا ما يجعل هذا النصّ قد يرد فيه معنى واحد على الأكثر في كلّ شطر، وقد يتقاسم الشّطران المعنى الواحد، ونجد المقطع بأكمله يحمل معنى واحداً؛ فلو لاحظنا المقطع الأول -مثلاً- لوجدناه يحمل فكرةً واحدةً مقسّمةً على أشطره السّتّة، ولو نظرنا إلى المقطع الثاني، لوجدنا أنّ كلّ شطرٍ ينفرد بمعنى واحد خاص، ولو نظرنا -كذلك- إلى المقطع الثّالث لوجدنا المعنى يقتسمه كلّ شطري بيتٍ من أبيات المقطع الثّلاث. فلا يهّم في الأنشودة إلا المعاني الرّئيسة، دون التّفصيل لها أو التّمثيل، أو غيرها من الآليات الشّعريّة في القصيدة العاديّة غير الأنشودة.

كما يمتاز أسلوب الأنشودة (قسماً) بميزة خاصة، وهي الارتكاز على آليات التخاطب؛ كحروف النّداء، وضمائر المخاطبة، وأفعال الأمر. فقد لاحظنا زخماً من أساليب النّداء، ووفرةً لضمائر المخاطبة، وكثرةً لأفعال الأمر. وهذا خدمةً للهدف العام والغرض الأساس لأنشودة مفدي زكريا، فأسلوب الأنشودة يعتمد على الإشارة مباشرةً إلى المعاني المراد التّعبير عنها دون رمزٍ أو انزياحٍ أو تشبيه.

13- الخاتمة.

النّشيدُ الوطنيُّ همزةٌ وصلٌ بين جيلِ الثّورة وجيلِ الاستقلال، فعلينا أن نبقى أوفياءً له، ليدكّرنا بأمجادِ أسلافنا وبطولاتهم وتضحياتهم. وهو يحمل من الأبعاد الدلالية الوطنية ما يجعله حمولة ثقافية ومكنزا ثريا لمعالم هذا الوطن، وبفضل هذه الأبعاد كان اختياره نشيداً رسمياً لهذا الوطن اختياراً علمياً دقيقاً ومناسباً.

هوامش البحث:

- ¹ - اعتمدنا في ذكر بعض الأحداث من حياته على الدراسة التي أنجزها الكاتب الجزائري بلقاسم بن عبد الله التي نشرها في جريدة (العرب الأسبوعي) يوم السبت 08 - 11 - 2008.
- ² - شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا في أحضان تونس الخضراء: لغة الشعر المعتزة بالهوية الثقافية والحضارية. حدام خريّف، مقال منشور بجريدة العرب، يوم: 18 جانفي 2010م.
- ³ - المرجع نفسه.
- ⁴ - سورة الأنبياء، الآية 104.
- ⁵ - سورة ص، الآية 20.